جامعة الازهر
كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنات
بالمنصورة

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

إشراف

الأستاذ الدكتور
محمود محمد البنداري
عميد الكلية

العدد الأول

Scanned with OKEN Scanner

جامعة الازهر
كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنات
بالمنصورة

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

إشراف

الأستاذ الدكتور
محمد محمد البنداة
عميد الكلية

العدد الأول

١٤٠٨هـ — ١٩٨٨م

Scanned with OKEN Scanner

مطبعة السعادة
ميدان احمد ماهر - شارع البحراوي رقم ١٢
ت ٩٠٧٣٧٩ ص.ب ١١٩٩٧٠

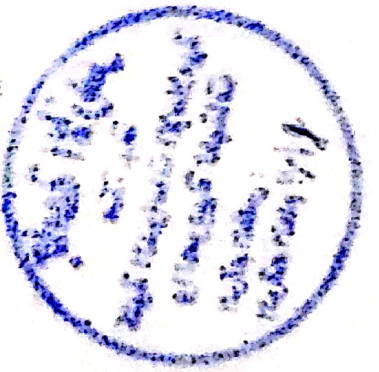

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم ، وبعـــد :

فها هو ذا العدد الأول من مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة ، وهو من الناحية الشكلية باكورة إنتاج ينضاف إلى الأعمال الكبيرة التي سبقته بزمن كبير ، ومن الناحية الفنية مادة وحياة ، مادة للتاريخ على اختـــلاف مسالكه ومساراته ، وحياة للنفوس الظمأى للمعرفة ، الحريصة على مايجب كما يجب ، لا على مايمكن كما يمكن .

وإذا كانت الحقيقة أي حقيقة تحتاج إلى من ينقدها ويوجهها أكثر من حاجتها إلى من يقبلها ويسلم بها ، فإن ماننشر في هذه المجلة من مقالات في شتى فروع العلم والمعرفة في انتظار كلمة النقد والتوجيه من أصحاب الأقلام الشريفة ، والأفكار النيرة ، والنقد المنصف ، لأن الكمال عزيز في النفس البشرية ، ولأن إهداء العيوب ، والتناصح الصادق من خير مايميز الخبيث من الطيب ، ويفصل الجيد من الردىء ، ولأن الفكر الإنساني في حاجة إلى ما يمنحه القدرة على استمرارية الوجود ، والترجمة إلى كل لغة ، والوصول إلى كل ذي لب ، أكثر من حاجته إلى الوجود ذاته ، فكم من أفكار طويت صفحاتها لأنها نتاج تقليد أعمى ، ومخاض أدمغة فارغة ، والمكان الذي لا يسده إلا الرأس العظيم لا تسده كلمة هي لإفراغ الملآن أكثر منها لملء الفراغ .

وما مادة البقاء فيما عمره الخلود إلا الفكر الصائب الذى تتغلب فيه قوة الظهور على أسباب الضعف أو الضمور ، والنقد الصحيح القائم على الموازنة والمقابلة والمناقشة والمفاضلة .

وتنوع المقالات فى هـذا العدد المتواضع ينبىء عن أقسام الكلية ، وتخصصاتها الدقيقة ودورها المؤمل فى خدمة لغة القرآن الكريم وأدب العرب أولا ، ثم فى خدمة القرآن الكريم ذاته ، والسنة النبوية المطهرة ردا ومدافعة ، أو إستجابة ومطاوعة عن طريق إستخراج المعانى ، واستنباط الأدلة ، وكشف الأسرار والحقائق .

والله نسأل أن يوفقنا لما فيه الخير والصواب .

وهو سبحانه ولى التوفيق ؟

السري الرفاء

نظرات ونقدات

بقلم الدكتور
محمود محمد البدة
عميد الكلية

السـرى الرفاء

نظرات ونقـدات

بقلم الأستاذ الدكتور
محمود محمد لبدة
عميد الكلية

فى مدينة « الموصل » وفى سنة من سنوات العقد الأول من القرن الرابع الهجرى ولد السرى الرفاء ، لم يحدثنا التاريخ عن سنة ولادته ، فقد ولد ونشأ كما يولد وينشأ المغمورون من الصبيان فى بيوت الفقراء الذين تجافت عنهم لمسات الزمن الحانية ، وباعدت بينهم وبين الذكر والشهرة أسباب الفقر والعوز ، وأودت بهم فى قرارة البؤس ذل الحاجة ، وقلة ذات اليد .

وهو من الشعراء العصاميين الذين سجلوا لأنفسهم صفحات وضيئة فى تاريخ الأدب العربى ، برفضهم للواقع الأليم الذى يحتسون كئوس مرارته ، ومناجزتهم للشعراء الذين يجارونهم فى ميدان السبق والشهرة ممن هم فى مثل طبقتهم ، وضربهم على قوالب من تفوقوا عليهم وأعجبوا بهم مثل البحترى وأبى تمام والمتنبي وابن الرومى .

وليس أدل على علو همته ، وقوة شاعريته من أنه نشأ فى عصر المتنبى بحر العربية الهادر ، وموجها المتدافع الثائر ، فلم ينثن له عزم ، ولم تلن له

فنـاة وإنما وصل بشعره إلى
الحمدانيين بقصائد كثيرة هي آيات فى الإبداع ، ونهاية فى الإمتاع .

ولم يقف عند غرض المديح الذى نال به كريم العطايا ، وجزيل الهبات ووطىء به بلاط الحمدانيين فى حلب ، وبلاط البويهيين فى بغداد ، وإنما ضرب فى أغراض أخرى كثيرة ، فكان لسان الصدق ، وقولة الحق حينما يصغى إلى إملاءات روحه ، وإشراقات وجدانه ، ولفتات ذهنه اليقظ ، وفكره اللماح وبخاصة فيما يتعلق بالوصف وصف الطبيعة ، ووصف حياته بآلامها ولذائذها ، ووصف الجمال فى كل ما تقع عليه عينه ويدركه فؤاده . ووصف الواقع الذى يحيط به فى دنيا التنافس والأحقاد ، ووصف الصفاء الذى يغمر قلبه حين تصفو له الدنيا ، ولاتخلو منه مشاعره وأحاسيسه إلا حين تتلوى عليه ، وتتأبى فى الاستجابة لما يريد . وهكذا نجد أنفسنا أمام شاعر صادق فى كل ما تفرزه عبقريته الفذة ، وتجود به قريحته المعطاءة ، يأسره الإحسان ، ومن وجد الإحسان قيـــداً تقيدا ، فيمدح ، وتلهبه الإساءة فيشكو وتستثيره المنافسة فيهجو ، ويخلو بنفسه يستلهم حواسه ، ويستنطق دفائنها فيوفق غاية التوفيق فى استقبال واردات الخواطر ، وفيوضات الروح ثم يصورها شعوراً مكثفا فى دلالاته ، محملا بكل ما اختزن فى وعيه واستقر فى لا شعوره ، مهما تكن درجة الموضوع الذى يصوره لأن تحميل الشعر موضوعا ما لا ينقص من منزلته ، ولا ينتقص من مكانته .

وتطالعنا سيرة السرى الرفاء من خلال شعره بأنه كان سكيراً ، يغشى الأديرة ويتردد على الحانات ، ويعاقر الخمر .

ومن ثم كان طبيعياً أن تأتى رؤيته الشعرية مصورة أبدع تصوير رؤيته الداخلية ، وواقعه النفسى ، وعالمه المتموج بشتى صور اللهو واللعب والخلاعة والمجون :

وجاد الموصل الزهراء غيث ... يجود وللبروق به انسفار
كما أهلت مدامع مستهام ... تلهب منه فى الأحشاء نار
ففى أيامها حسن التصابى ... وفى أفيائها خلع العذار
ليالى كان لى فى كل يوم ... إلى الحانات حج واعتمار
فمن ذكر القيامة بى صدود ... وعن ساح المساجد بى نفار(١)

وأخلق بشاعر يصد عن القيامة وذكرها، وينفر من المساجد وساحاتها أن تكون قبلته التى ييمم نحوها وجهه، وغايته التى ينتهى إليها أمله كأسا تصافحه:

تصافح الكأس يدى ما ارتد خطب أو صفح
فى روضة قد لبست من لؤلؤ الطل سبح

وألا يستمع إلى لوم اللائمين، وعذل الناصحين:

وكم عذول ناصح قلت له وقد نصح
أقصر فمن رام صلا ... ح العيش بالكأس صلح(٢)

وأن يكون للخمر فى عينه وفى نفسه منزلة خاصة تجعله يتغنى بجمالها، ويقدس عنصرها وذاتها، فى بيان شفاف، وتعبير جزل بعيد عن التصنيع والتصنع:

فاشرب على قرب الحبيب وذكره ... كأسا تزيدك لوعة وتشوقا
يضحى السرور بها مليكا مطلقا ... والهم فى يدها أسيرا موثقا
أهدت إليك المسك من أنفاسها ... طرق تروق الطرف حسنا ريقا(٣)

---

(١) الديوان تحقيق حبيب حسين الحسيف ٢/١٧٤.
(٢) السابق ٢/٤١
(٣) السابق ٢/٤٦٤.

وأن يلون شعره فى مطالع كثيرة من قصائد المديح التى يزجيها بذكر اثنين هما فى الحقيقة مصيبة حياته ، وقيد عاطفته ، الخمر والغزل .

وهو فى ذلك يحمل لواء الدعوة التى نادى بها أبو نواس حين قال :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند واشرب على ورد من حمراء كالورد

وفى معانى الخمر والغزل تسرح خيال السرى الرفاء ، وتلذذ بلذات الهوى حتى إن القارىء ليشعر أنه قيد عاطفته فى إطارهما ، وزور معانى الفضيلة من أجل إعلاء شأنهما ، وبدأ فصل حياته أو قل مأساته وانتهى بهما فإذا مدح فعائد مديحه من النوال مضيع على خمر يحتسيها أو امرأة خلبه جمالها فهو بين سكرين يعيش : سكر الخمر وسكر الجمال .

وإذا هجا فهجاؤه ليس من أجل ذاته أو الانتقام لكرامته ، وإنما هو من أجل الغلبة على شاعر ينافسه بلاط الأمراء ، كما فعل مع الخالديين الموصليين وهو بذلك يريد أن يخلو له الجو ، وينفسح أمامه الطريق لكسب قلوب الملوك والأكابر عطفاً ، وتلقى فيض نوالها عطاء ومنحا .

وقد يهجو من منعه رفده ، فيصفه بالبخل وشح النفس ، ولكنه كان فى هذا اللون مقلا لأنه كان على أمل دائماً بأن يتبدل المنع منحا ، والفيض فيضا .

ومن شعره الغزلى فى مطلع قصائد المديح قوله يمدح أبا الهيجاء حرب بن سعيد بن حمدان :

ما ضر ليلتنا بسفح محجر لو باعدت سفر الصباح المسفر
بات العناق يهز من أعطافنا غصنين من ورق الشباب الأخضر
إلفان وردهما المدام على الظما وجناهما زهر الحديث الأنيق

سرقا من الأيام يوما صالحا شفيا به حر الجوى المتسعر[1]

وقوله يمدح الأمير أحمد بن نصر بن حمدان أحد أمراء الحمدانيين، وقد مزج ببراعة فى مستهل القصيدة بين خمر الجمال وخمر العنب، ووازن فى انسجام بين النغم الموسيقى وبين الصورة الجامعة لدنيا خمر الجمال ودنيا الخيال والأحلام فى عالمه الخصب الرحيب[2]:

عوجا على ذاك الكثيب من كثب فكم لنا فى ربوتيه من أرب
ما عن لعين به سرب مها إلا جرى من جفنها دمع سرب
سرن وقد عوضن قلبى طربا للحزن من فرط السرور والطرب
واحتجبت فى كلل الرقم دمى تألفت أثناءه الحجال والحجب
جدن بأجياد تحليها النوى فرائدا من دمع عين منسكب
صواعد الأنفاس أبقت نفسا فى صعد منا ودمعا فى صبب
ومخطف يهتز من ماء الصبا كأنما يهتز من ماء العنب
قام وسوق اللهو قد قام به ينتخب أقداح الندامى بالنخب
ويموج الكأس بحباب ريقه حتى تبدى الصبح مبيض الحبب

والأغراض الشعرية التى دار عليها شعر السرى الرفاء ثلاثة المديح، والوصف والهجاء، وهى على الترتيب الذى ذكرت تناسب التدرج الطبيعى لحالات الشاعر النفسية، ودوافعه الحيوية التى تجعله يزيد فى بعضها حتى يبلغ حد الإكثار المسرف، ويقل فى بعضها الآخر حتى يبلغ حد الإقلال المتخوف وهو فى كلا حاليه من الإكثار والإقلال مدفوع بشعور صادق حى، ناشىء عن فيض روحى، لا سبيل إلى التخلص منه إلا بالتعبير عنه ويتمثل هذا أصدق تمثيل فى شعر الوصف، قصائد ومقطوعات، وقد بلغ السرى الرفاء فى هذا الغرض مبلغا كبيرا اقترب به من ذروة المجد الشعرى، لأنه فيه يبرز

(١) الديوان ٢/١٦٣ (٢) الديوان ١/٣٤٠

إحساسا ويجلى عاطفة ، ويصل إن قلب القارىء أو السامع من غير عاجة إلى أدنى كلفة ومشقة ويبث فيهما من الشعور بالإحساس المصور ، أو بالواقع المقرر أضعاف أضعاف ما يشعر به لو كان وحده ، ولأنه لا يعارض غيره من سبقه أو عاصره ، لأن المعارضة — من وجهة نظرى — مهما بلغت أو بلغ صاحبها من التوفيق والتفوق ، تحمل معنى التكرار . والصب على قوالب من سبق صباً مطلقاً من حيث اللغة والأسلوب والمعانى والصور والأوزان والقوافى أو صبا مقيدا من حيث موسيقاه فقط أو من حيث الموسيقى والموضوع ، ثم إنها تحمل معنى البعث لا الإضافة ، البعث للقديم والجرى فى إطار مقاييسه الفنية . وفى هذا مافيه من وأد القوة الوصفية فى طبيعة الشاعر الموهوب ، والوقوف بالنغم الموسيقى عند حد النغمة القديمة حتى ولو أدى هذا إلى النشاز وعدم الانسجام (والشعر الرفيع حياة موسيقية مختارة تعبر عن نفسها فى فن من الكلام ، والموسيقى حياة موسيقية مختارة ترفرف بألحان بجنحة فى جو منغم موزون)(١) .

وقد جمع السرى الرفاء فى شعره الوصفى أو قل فى شعره التصويرى بين طبيعتين : إحداهما تجعله يحس ، ويتمتع بهذا الحس ، ويضفى على غيره قوة الشعور بهذا الحس وهو فى هذه الطبيعة إنسانى النزعة ، عالمى الشعور ، لأننا إذا صفينا منه متعة الشاعر الحسية ، يبقى لنا الكثير ، يبقى لنا الشاعر وقد وضع نفسه فى الشعر ، يخفق خفقانه الحى فى ألفاظه ومعانيه ، وتبقى لنا روحه التى توقدت فيها الآمال والآلام واللذات والمتع ، ثم أخرجت كل ما أحسته آيات بديعة فى الوصف ، وغايات فى أدب الفكر وجماله ، وأدب النفس فى انطلاقاتها الروحانية ، وتعبيراتها المسددة الفنية ، ويظهر هذا واضحا فى شعره الوصفى الذى يدور فى فلك الطبيعة فقد كان فيه ملهم النفس ، راقى

---

(١) الشعر المصرى بعد شوقى « الحلقة الثانية » ص ٥٦ .

الحس ، أصيلا فى تعبيره عن ملاحظاته ، وقصائده ، أو مقطوعاته التى خصها للطبيعة قليلة جدا ، ومن ثم فنحن نلتقط من شعره فى هذا الغرض ما انبث فى تضاعيف قصائده فى أى غرض من الأغراض ، وهنا نجد السيل الدافق من المناظر الطبيعية التى لفها الشعر فى حواشى سحره ، وأضفى عليها الشاعر من صفاء دره ، فبدت كأنها من عظمة الحياة الماثلة فيها لحنا ينساب فى الأذن نغما ، وفى النفس جمالا ، وفى الوجود روحا . ولنصغ إليه يصف السحاب والزهر والشقائق[1] :

غراء تنشر للحيا أعلاما ... عم البلاد صنيعها إنعاما
مرت بظمآن الثرى وبروقها ... تشرى ، وأدمعها تفيض سجاما
مثل المحب ترقرقت عبراته ... والشوق يذكى فى حشاه ضراما
فقدت عيون النور فيه كأنها ... مقل ترى طيب الغموض حراما
أهدى الحيا للورد فى عرصاته ... خجلا ، وأهدى الياسمين غراما
وتشققت قمص الشقيق فخلته ... فى الروض كاسات ملئن مداما

وقد وضع محقق الديوان « حبيب حسين الحسيني » المقطوعة السالفة الذكر تحت عنوان : « وقال بديها يصف السحاب والزهر والشقائق » ، وكلمة بديها هنا تعنى أنه رأى منظرا أعجبه أو أثر فى نفسه فوصفه على الفور وصفا سديدا منقولا عن الشعور ، مترجما عن قرارة الوجدان ، وهو ما يسمى بلغة الشعراء فى عصرنا الحديث « قصائد اللحظة الحاضرة » ، ولكن البحث الدقيق الذى أفادته إجابات الشعراء فى الدراسات الأدبية الحديثة حول تفسير عملية الإبداع الفنى أثبتت أنه ما من قصيدة أبدعها الشاعر إلا ولها ماض فى نفسه ، وأن الذاكرة هى التى تمكن الشاعر من أن يصل لحظة الإدراك

---

(١) الديوان ٢ / ٦٩٨

المباشرة التى تسمى « الإلهام » باللحظات الماضية التى حملت إليه انطباعات عائلة ، ما تزال محتفظة فى مخزون لا مشعور بحيويتها وقوتها (١) .

يضاف إلى ما سبق أن « للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات » كما قال ابن سلام

فإذا تمكن الشاعر تمكنا قوياً فى صناعة الشعر ، وثقف أصوله وضوابطه التى يقوم عليها ، وبصر بدروبه ومضايقه التى لا يعرفها ولا يقدرها حق قدرها إلا هو وتمكن من فصح اللغة فأحسن استعمالها . وأنزلها منازلها ، ثم أسعفته الذاكرة بوصل لحظة الإدراك المباشرة باللحظات الماضية التى اختزنت فى لاشعوره ، واستقرت فى أعماقه من غير أن تفقد شيئا من حيويتها وقوتها أقول :— إذا اجتمع له كل هذا ثم وجه همته وغايته إلى موضوع معين كان له من البيان الفنى ، والفيض الحيوى فى الغرض الذى أنشد فيه ما يستوعب دفقاته الشعورية ، ودفعاته النفسية ، ولا يتوقف هذا الفيض حتى يصل إلى غايته من التصوير .

أما الطبيعة الأخرى فى شعره الوصفى ، وهنا يتسع معنى الوصف ويضيق يتسع إذا اعتبرناه الغرض الذى تندرج تحته سائر الأغراض الشعرية الأخرى ، ويضيق إذا قصرناه على الطبيعة الملهم الأول لكل فنان ، أو على كاسات ألحان التى تستحيل شعرا حينما تصبح حالة من حالات الوجدان ، فإننا إذا أردنا تجليتها من ناحية وسائل التعبير الفنية التى استخدمها السرى الرفاء للإفصاح عن معانيه وأفكاره وأردنا كذلك تجليتها من حيث اهتمامه بالوصف ذاته أكثر من اهتمامه بالأثر الذى تركه الموصوف فى نفسه ، وجدنا السرى الرفاء يدور فى الحلقة التى دار فيها الشعراء قبله ، فالمعانى القديمة

---

(١) راجع الأسس النفسية الإبداع الفن فى الشعر خاصة ص ٢٨١ .

ما زالت المثل الأعلى المحتذى ولا سبيل إلى العدول عنه والتعبير عن هذه المعانى ناتج من نواتج الاقتدار البيانى التى تدخله فى عداد الصاغة المهرة ، وتلق غلاله قد تكون كثيفة جدا على شاعريته الخصبة ، وطبيعته الملهمة ولا ننسى أن شعراء القرن الرابع الهجرى، جدت لديهم من أسباب الإبداع الفنى مايجعلهم صفحة متمين مصنفة أبدع تصنيف وأدقه ، لأن رقعة الدولة الإسلامية قد اتسعت ، ولم يعد وحى البيئة قاصراً على الجبال ، والأطلال والدمن البوالى وبعر الآرام ، ووصف الأحبة النازحين ، وأين هذا من بردى والرصافة والفرات والنيل ، بل أين جبال شبه الجزيرة العربية القاحلة الجدباء من جبال الأندلس الجميلة الفيحاء ؟

ولأن الدولة الكبيرة إذا كانت قد انقسمت إلى دويلات وإمارات فإن هذا التقسيم كان من الناحية السياسية فقط . أما الشعراء فلم يكن لهم وطن محدد ولا جهة بعينها ينتمون إليها ، فكل رقعة فى الوطن الإسلامى الكبير مثابة لهم إليها يغدون ، وعنها يروحون متى طاب لهم الحل أوعن لهم الترحال .

ولأن الأمراء والوزراء فى كل دولة أو إمارة كانوا يغدقون العطايا والهبات على الشعراء ، ويتباهون بذلك ، ويعدون حلل البيان أخلد وأبقى من حلل الحرير وبريق الأصفرين .

ولكنهم على الرغم من ذلك ظلوا يلوكون المعانى والصور القديمة ، والأطر التى لم يعد العصر عصرها ، ولا الناس ناسها .

ولعل السبب فى ذلك يرجع — كما عزاه الدكتور هيكل — إلى أمرين : أولهما أن أكثر الشعراء يرجعون بأرومتهم إلى أصل عربى يؤثر عليهم بحكم الوراثة ، ويجعل طبيعة شبه الجزيرة العربية حية فى نفوسهم وإن بعدوا عنها ، والثانى أن الذين لا ينتمون إلى أصل عربى قد درسوا اللغة العربية ، وتعلموا الشعر العربى على أولئك الجاهليين ومن أخذوا عنهم ، ولذلك انطبعت المعانى

البدوية فى نفوسهم ، فلم يستطيعوا منها فكاكا ، ونستطيع أن نضيف إلى هذين السببين ما كان من ربط اللغة العربية بالدين الإسلامى على نحو أضفى على اللغة رداء من القداسة جعل الشعراء والكتاب يتقيدون أكثر الأمر بقوالب اللغة الأولى ، مخافة الغلو فى الإبداع غلوا يكون سيء الأثر فى هذا الارتباط المتين بين اللغة والدين) هذا هو تعليل الدكتور هيكل ، رحمه الله ـ وفى تصورى أن الإحساس بالشيء هو الذى يخلق اللذة ، وأن الفتنة بمعانى الحياة ومغانيها والتأمل فى مجاليها ومجانيها ، والهيام والشغف بكل مافيها هو الذى يخلق فى الشاعر معنى الاستقلالية لا التبعية ويمد طبيعته بالوضوح ، ويملأ شعره بتموجاته النفسية جلجلة وقوة حينا وهما ونجوى حينا آخر .

وقد يكون تعلق الشاعر بالشكل والطريقة ومع ذلك لا يخلو شعره من الإبداع البارع والقدرة المتمكنة ، والفلسفة الدقيقة .

وقد يكون التعلق بالأشكال التقليدية من حيث كونها الركيزة الأولى أو المنبهة التى ينطلق الشاعر من نقطة نهايتها إلى أشكال فنية جديدة تساير روح العصر ، وتقرأ فى شفافية صافية تنبؤات المستقبل ، من غير أى فصل أو خروج على الموروث اللغوى والأدبى .

وقد يكون أسلوب المتابعة للقديم للعيش فى جو التراث ، والإعلان بأسلوب عملى عن استيعاب هذا التراث وهضمه وتوليد أشكال فنية تقترب من وضعيته النمطية فى الظاهر ولكن عن خلال رؤية شعرية تعايش الحقيقة المصورة معايشة إحساس لا معايشة رصد ونقل .

ولو استقرينا شعر السرى الرفاء لوجدناه جامعا لكل أشكال هذا التصور الذى فصلنا جوانبه آنفا .

---

(١) مقدمة د / هيكل لشعر الطبيعة فى الأدب العربى ص ١١ .

وهو بذلك يعد من الشعراء القلائل فى العصر العباسى الذين لا يبحرون فى أعماق المعنى ، ولا يتجهون إلى تجسيد الفكرة إلا إذا حفرت فى أعماق وجدانهم واستقيت مادتها من واقع ما يحسونه أو يشاهدونه ، ونحن بهذا لا نضعه وشعره فى النمط الأعلى دائماً . ولا نزعم أن جيده أكثر من رديئه أو أن أسلوبه يجرى على خط متواز دائما ، فذلك ما لم يتوفر لشاعر أبداً ، وإنما نقول ونؤكد على هذا القول دائماً .

إن الشعر خطفة من خطفات الوجدان ، فما قل منه ولو كان قصيدة أو مقطوعة أو قل بيتا فى قصيدة أو فى مقطوعة خير مما كثر زبده ، وقلت درجته وتضاءلت قيمته .

وما خلد الشعراء الفحول بشعرهم وإنما خلدوا بقصائد أو قل بقصيدة أو قل بأبيات لم يسبقهم إليها سابق ، ولم يبلغ شأوهم أو يحذحذوهم فيها لاحق .

وإذا كان فى شعر السرى الرفاء نبرة فحش تطالعنا من حين لآخر ، وتظهر أسوأ ما تظهر فى غزله بالمذكر ، فإن هذه النغمة النشاز تعبر عن حالة واقعة وتعكس صورة لمجتمع امتهنت فيه الكرامة . ودبس دثار الوقار والحشمة ، بما أفيض على بعض طبقاته من ثراء فاحش ، وترف بالغ ، وبما كثر من الإماء والعبيد وفى معظمهن دناءة فى الطباع ، وفجور فى التصرف ، وبما كثر من مجالس الخمر واللهو والفحش ، دون أن يضعوا فى حسابهم تسجيل التاريخ - وهو شاهد صدق - لما يقولون ويفعلون فهو إذن فى شعره الدعر على طريق أبى نواس ، ومطيع بن إياس ، وحسين الضحاك وغيرهم من شعراء اللهو والمجون .

من ذلك قوله فى وصف العذار :

وعارض مثل دارة البدر دار بوجه كليلة القدر
فلو تراه وحسن منظره لقلت : إن الجمال للشعر (١)

* * *

وقوله يصف العذار أيضا :

لو صح عذرى فى الحب مذ عذر فلم يلم لائم لمن أبصر
ورق منه غصن يؤرقنى شوقا إلى غنج طرفه الأحور
انبت فى القلب نبت عارضه خناجرا وهو حامل الخنجر
كفرت إن لم تكن محاسنه لو أبصر الحسن حسنها كبر (٢)

* * *

وقد يبالغ فى الوصف حتى يبلغ درجة من التحلل الدينى والخلقى فيقول:

هاج لقلبى الشوق وجد طرقه وشفه ذكر حبيب أرقه
تأنق الخالق فى قدرته فأبلغ القدرة لما خلقه
فهو أجل أن يقال إنه من نطفة أو مضغة أو علقة (٣)

* * *

ويدخل فى نبرة الفحش شعر الهجاء ، وهو فى شعر السرى الرفاء يكاد يكون مقصوراً على من يراهم دونه منزلة ، فهو أبداً محتقر قدرهم ، منتقص شأنهم وفى ديوانه كثير من القصائد والمقطوعات التى هجا فيها الخالديين ، وابن العصب الملحى وكان يتعصب للخالديين عليه وفيه يقول :

أقررت يا ابن العصب العيونا وبحت حبلا للخنا متينا
علمت قوما كيف يقصفونا فاطرحوا الحشمة مسرعينا

(١ ، ٢) الديوان ٢/٢٦٧ ، ٢٤٠ .
(٣) الديوان ٢/٥١٧ .

ودخلوا القبة آمنينا فأكلوا يومهم سمينا
ولم يكن سرورهم مأمونا يا من يرى نزف الدنان دينا(١)

ويقول فى قصيدة أخرى :

ملنا إلى غرفة الملحى أن بها ظبيا من الإنس مبذول الخلاخيل
نزوره وبقايا الليل تسترنا فنهتدى لخليع فيه ضليل
يرضى النديم ويرضى عن مروءته إذا أتاه بمشروب ومأكول
وإن رآه رقيق الوجه قال: ارق كأس الحياء بضم أو بتقبيل
فزرت إذ زرته قنديل بيعته فالزيت ينشر أضواء القناديل
وابسط يمينك فى تجميش كدته وفى قفاه فما سمح بمغلول
وإن تنفس فاحذر منه صاعقة تردى الجليس وكن منه على ميل(٢)

ومما ينبغى التنبيه إليه أن السرى الرفاء قد هجا نفسه ، وما أظن الذى قال إلا أثرا من أثار معاقرة الخمر ، الذى ذهبت بلبه ، وأفقدته كل معنى من معانى احترامه لنفسه ، قال :

عرض المشيب لعارضى فزادنى ذلا وزاد ذوى المحاسن تيها
وأرتنى المرآة يوما صورتى فطفقت أبصق للسماجة فيها(٣)

وهو بهذا يجرى مجرى الحطيئة حين التمس إنسانا يهجوه فلم يجده ، فلما ضاق عليه ذلك أنشأ يقول :

أبت شفتاى اليوم إلا تكلما بشر فما أدرى لمن أنا قائله

وجعل يدهور هذا البيت فى أشداقه ، ولا يرى إنسانا ، إذ اطلع فى ركى أو حوض فرأى وجهه فقال :

أرى لى وجها شوه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله (٤)

---

(١) الديوان ٢/٧٣٠
(٢) السابق ٢/٥٤٦
(٣) السابق ٢/٧٧٠
(٤) ديوان الحطيئة ص ٣٣٣

ومهما يكن من شيء فإننا لسنا مع الرأى القائل بأن المعانى الشعرية تقاس بصحتها من الناحية العقلية أو الفلسفية ، وإن كان الشعر لا يخلو من العقل، ولا يخلو من الفلسفة ، ولكن الكمية المطلوبة من كليهما لا تطغى بأى حال على الكمية الوجدانية والخيالية وصدق التعبير عن الشعور ، من منظور الشاعر الخاص ، ورؤياه الإبداعية ، هو جوهر الحكم على الشعر ، والتعامل معه تعاملا تشكيليا جماليا .

وطبيعة الشعر هى التى تفرض هذا الرأى أو بتعبير آخر تدعمه وتسانده وقد قيل لأحد الفلاسفة : فلان يكذب فى شعره ، فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام والصدق يراد من الأنبياء (١)

وأعذب الشعر أصدقه من الناحية النفسية ، وأعذبه أكذبه فى الوقت ذاته من الناحية التخييلية ولا تناقض بين هاتين المقولتين على هذا النحو من التفسير .

(١) انظر الصناعتين ص وطبيعة الشعر لمحمد المزب ص ٥١ .